



خطبة صلاة الجمعة 25 / 6 / 2021 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

### (يُخْتَارُ أَخْفُ الضَّرَرِينَ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيته وخليفه، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (II) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12] الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به. والأذن الواعية هي أذن سمعت وعقلت ما سمعت، أو هي أذن تحفظ ما سمعت، وتفكر فيه وتعمل بموجبه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالِي فَوَعَاها؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهم].

هذه هي الخطبة العشرون في سلسلة عناونها (توعية)، أعرض لكم في السلسلة صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحة مرة لنعم خيرها ونشر فضلها، وخاطئة أو مخطئة مرة لنحذر شرها ونترك فعلها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يجب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: يُخْتَارُ أَخْفُ الضَّرَرِينَ

إذا تقابل مكروهان أو محظوران أو ضرران ولم يُمكن الخروجُ عنهما، وجب ارتكاب أخفهما.  
هذه العبارة (يختار أخف الضررين وأهون الشرين) قاعدة فقهية تدرج تحتها عدد من فروع المسائل الفقهية والشرعية، وهي كذلك قاعدة قانونية وحياتية يتبعها العقلاء في شؤون حياتهم لينجحوا وعندما يخالف بعض الناس يقعون في أخطاء جسيمة.

عفاف فتاة صالحة خيرة بنت عائلة معروفة بالمحافظة على الأسرة ورعاية مال الزوج ونفسه، تزوجت شاباً بدا لأهلها أنه جيد، رزقت منه بابنتين، ولكنها مع مرور سنوات الزواج خُبرت صعوبة أخلاقه وسوء إدارته للمنزل والمال وعدم تحمله للمسؤولية، كان ينفق ماله القليل على ملذاته ويتركها والبنتين في ألم القلة والحاجة فضلاً عن أقسى العبارات، أصيبت بارتفاع ضغط شرياني نفسي المنشأ وأمضت كثيراً من لياليها باكية متألماً.

اليوم وقد بلغت بنتاها السابعة والتاسعة من العمر لم تعد تطق صبراً، وتريد طلاقاً ولو كلفها ذلك ما كلفها.

لا يستطيع أبوها ضمها مع أولادها إلى بيته لفقره وعجزه، وهو يعلم من سوء خلق زوجها أنه لن ينفق على الأولاد إلا الفتات إرغاماً لها وإرهاقاً.

فهي بخير النظيرين إما أن تبقى متحملة ما تتحمل من العناء مع زوجها لتبقى في بيتها مع الأولاد لترعاهم وتنعم بقربهم وتحفظ سلامة تربيتهم.

وإما أن تطلب طلاقاً وتذهب لبيت أهلها فترتاح من عناء زوجها لتجد عناء فقد بنتيها، ويجدن لوعة فقد الأم وسوء خلق الأب، فهي أمام خيارين أحلاهما مر.

نقول للأخت عفاف وأشباهها ممن وقع بين محظورين أو مكروهين أو شرين أو ضررين أو مفسدين - وهذا يقع كثيراً في الحياة، ولعله أكثر ما فيها -: يرتكب أخف الضررين وأهون الشرين لدفع أكبرهما.

### أيها الإخوة:

يقول الفقهاء: جاءت الشريعة لتحقيق مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودرء المفسدة عنهم، فيجب دفع المفسد كلاً ما أمكن، وجلب المصالح ما أمكن - وهذا هو الأصل -.

لكن إن عرضت المفسد، ولا يمكن دفعها كلاً، وجب اختيار المفسدة الأخف وارتكابها، لدفع المفسدة الأعظم والأشد، واختيار المفسدة الأخف ضرراً تساعد على تجنب الأشد ضرراً.

قال ابن النجار الفتوحي: "فدرء العليا منهما أولى من درء غيرها، وهذا واضح يقبله كل عاقل، واتفق عليه أولو العلم".

ومستند هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217] ذلك أن سرية للمسلمين قاتلت المشركين في أول يوم من رجب ظناً منهم أنه من جمادى ففجر عليهم المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فأنزل الله تعالى الآية تبين أن مفسدة أهل الشرك من الكفر بالله، والصد عن المسجد الحرام، وفتنة المؤمنين بالسعي لإرجاعهم إلى الشرك، أعظم من مفسدة قتال المشركين في الشهر الحرام، فاحتُملت أخف المفسدتين لدفع أعظمهما.

ودليل هذه القاعدة أيضاً حديث بول الأعرابي في المسجد، ونهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يئزموه، لأن ذلك ضررٌ أعظم من ضرر تنجيس أرض المسجد بالبول، فدعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الرضا بأقل الضررين لدفع أكبرهما.

وما فعله سيدنا الخضر على مرأى من سيدنا موسى عليه السلام - كما تقرأون في سورة الكهف - كان دفعاً للشر الكبير بارتكاب الشر الصغير، ومراعاةً أخف الضررين وأكبر المصلحتين ولهذا القاعدة تطبيقات كثيرة في فروع الفقه:

منها: جواز شق بطن المرأة الميتة لإخراج الجنين إذا كانت ترجى حياته، ارتكاباً لأخف الضررين لدفع أكبرهما.

وجواز قتل الكلاب الشاردة إذا كانت تخيف الناس وتؤذيهم، وكذلك قتل كل مؤذٍ لا يندفع أذاه إلا بالقتل، ارتكاباً لأخف الضررين لدفع أكبرهما.

ومشروعية القصاص والحدود، ارتكاباً لأخف المفسدتين، إذ يدفع الضرر عن الجماعة، وإن لحق الأذى الأفراد.

وجواز السكوت على المنكر إذا كان يترتب على إنكاره ضرر أعظم.

مرَّ أحد العلماء مع بعض أصحابه في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معه، فأنكر العالم عليه، وقال له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدhem الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال فدعهم.

فالنهي عن المنكر إن ترتب عليه منكر أكبر وجب السكوت عنه ارتكاباً لأخف الضررين لدفع أكبرهما.

وهكذا أيها الإخوة تجدون فروعاً كثيرة في الفقه ويوجد فروع مثلها في الحياة، الحل فيها اختيار أخف الضررين وأهون المفسدتين وأقل الشرين لدفع أشدهما.

وكثيراً ما يحتاج الواحد منا أن يطبق هذه القاعدة ليصيب، فالمرء يحب تحصيل المنافع كلها ودفع المفاسد جميعها، ولكن الحياة لا تستقيم له على هذا الحال فيحتاج مراراً لقبوله بأخف الضررين وأقل المفسدتين.

الشاب الفقير الذي يعمل عند رجل يطالبه بالجهد الكبير ويعطيه الأجر القليل، وتحدثه نفسه وبعض من حوله أن القعود في المنزل من دون عمل خير من استغلال الرجل له.

نقول له ارض بأخف الضررين وهو بقاؤك في العمل عنده لدفع أكبرهما وهو البطالة وحاجتك للمال، وليكن بقاؤك عنده إلى أن تجد خيراً من العمل عنده.

العائلة المستورة المستأجرة داراً مناسبة بمبلغ كبير يستنزف مواردها المالية وقد أتيح لها شراء منزل في طرف المدينة البعيد يريحها من تبعات الأجار الشهري، وأفرادها منقسمون إلى قسمين يريد الأول البقاء في بيت الأجرة المناسب المستنفذ للموارد ويريد الفريق الثاني الانتقال للبيت البعيد غير المناسب ليدخروا شيئاً من الموارد المالية.

نقول لهم ارضوا بأخف الضررين وهو سكنكم في المنزل البعيد لدفع أكبرهما وهو استنزاف الموارد إلى أن تدخروا مالاً جديداً تشتروا به داراً أفضل.

الدائن الذي امتنع مدينه عن السداد إلا أنه مستعد لإعطائه شقة سكنية في مصيف لقاء إبرائه من الدين.

نقول له ارض بأخف الضررين واقبل الشقة خيرٌ من أن يفوتك المال والشقة.

الزوج المبتلى بزوجة شرسة ولكنها ترعى أولاده وتهدهه إن طلقها بترك الأولاد له، ولا يستطيع الزواج بغيرها إن طلقها ولا يجد من ترعى أولاده مثلها.

نقول له ارض بأخف الضررين وهو بقاؤها عندك لدفع أكبرهما وهو فقد أولادك لأم ترعاهم، لعل الله أن يصلحها يوماً وإن لا فسيحاسبها على فعلها.

الأخت عفاف صاحبة القصة في مطلع الخطبة نقول لها يجوز لك أن تطلي الطلاق، ولكن ننصحك - إن كنت قادرة- بأن ترضي بأخف الضررين وهو بقاءك مع زوج صعب للحفاظ على بيتك وبنيتك لدفع أكبر الضررين وهو ترك البنات لسوء خلق الأب ولوعة فقد الأم، إلى أن يصلح الله لك زوجك أو تصيري كاسبةً للمال، لتذهبي عندها مع بناتك لبيت أبيك، ويذهب هو إلى محاسبة الله تعالى له، ما لم يتب ويرجع لتحمل مسؤولية زوجته وبنتيه.

**أيها الإخوة:**

إِنَّ اللَّبِيبَ إِذَا بَدَأَ مِنْ جِسْمِهِ      مرضان مختلفان داوى الأخطرا

الموازنة بين الأمور شأن أهل العقل والوعي والحكمة، فلا يكفي العاقل أن يعلم الخير من الشر، بل لابد أن يعلم خير الخيرين ليأخذه وشر الشرين ليدفعه.

وينفعك في معرفة خير الخيرين وشر الشرين بعد توفيق الله تعالى كثرة العلم وإعمال الفكر واستعمال مشورة العقلاء، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

**والحمد لله رب العالمين**